وقيل: الأتقى وجعل مختصًا بالنجاة كأن الجنة لم تخلق إلا له. وقيل: هما أبو جهل، أو أمية بن خلف. وأبو بكر رضي الله عنه.

ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴿١٩﴾.

﴿يتزكى﴾ من الزكاء أي: يطلب أن يكون عند الله زاكيًا لا يريد به رياءً ولا سمعةً أو يتفعل من الزكاة.

فإن قُلْتَ: ما محل يتزكى؟ **قُلْتُ:** هو على وجهين إن جعلته بدلاً من يؤتي فلا محل له لأنه داخل في حكم الصلة، والصلاة لا محل لها، وإن جعلته حالاً من الضمير في يؤتي فمحله النصب.

إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾.

﴿ابتغاء وجه ربه﴾ مستثنى من غير جنسه، وهو النعمة أي: ما لأحد عنده نعمة إلا ابتغاء وجه ربه. كقولك: ما في الدار أحد إلا حمارًا. وقرأ يحيى بن وثاب: إلا ابتغاء وجه ربه بالرفع، على لغة من يقول: ما في الدار أحد إلا حمار. وأنشد في اللغتين قول بشر بن أبي حازم:

أضحت خلاءً قفارًا لا أنيس بها إلا الجآذر[1] والظلمان تختلف

وقول القائل:

وبلدة ليس بها أنيس إلا اليعافير وإلا العيس

ويجوز أن يكون ابتغا وجه ربه مفعولاً له على المعنى، لأنّ معنى الكلام: لا يؤتى ماله إلا ابتغاء وجه ربه لا لمكافأة نعمة.

وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴿٢١﴾.

﴿ولسوف يرضى﴾ موعد بالثواب الذي يرضيه ويقر عينه. عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة والليل أعطاه الله حتى يرضى، وعافاه من العسر ويسر له اليسر»[2].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة الضحى مكية

وَٱلضُّحَىٰ ﴿١﴾.

المراد بالضحى: وقت الضحى وهو صدر النهار حتى ترتفع الشمس وتلقى شعاعها. وقيل: إنما خصّ وقت الضحى بالقسم لأنها الساعة التي كلم فيها موسى عليه السلام وألقي فيها السحرة سجدًا، لقوله: ﴿وأن يحشر الناس ضحى﴾[3] وقيل: أريد بالضحى النهار بيانه قوله: أن يأتيهم بأسنا ضحى في مقابلة بياتًا.

وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾.

﴿سجى﴾ سكن وركد ظلامه، وقيل: ليلة ساجية، ساكنة الريح، وقيل: معناه سكون الناس والأصوات فيه. وسجا البحر سكنت أمواجه، وطرف ساج ساكن فاتر.

مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾.

﴿ما ودعك﴾ جواب القسم ومعناه: ما قطعك قطع المودع. وقرئ بالتخفيف يعني: ما تركك. قال:

ثم ودعنا آل عمرو وعامر فرائس أطراف المثقفة السمر

والتوديع: مبالغة في الودع لأنّ من ودعك مفارقًا فقد بالغ في تركك. روي أنّ الوحي قد تأخر عن رسول الله ﷺ أيامًا فقال المشركون: إنّ محمدًا ودعه ربه وقلاه[4]. وقيل: إنّ أم جميل امرأة أبي لهب قالت له: يا محمد ما أرى شيطانك إلا قد تركك فنزلت[5]. حذف الضمير من قلى كحذفه من الذاكرات في قوله: والذاكرين الله كثيرًا. والذاكرات يريد والذاكراته ونحوه. فآوى فهدى فأغنى وهو اختصار لفظي لظهور المحذوف.

وَلَلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ ﴿٤﴾.

فإن قُلْتَ: كيف اتصل قوله: **﴿وللآخرة خير لك من الأولى﴾** بما قبله؟ **قُلْتُ:** لما كان في ضمن نفي التوديع والقلى أنّ الله مواصلك بالوحي إليك[6]، وأنك حبيب الله ولا ترى كرامةً أعظم من ذلك ولا نعمةً أجل منه، أخبره إن حاله في الآخرة أعظم من ذلك وأجل، وهو السبق والتقدم على جميع أنبياء الله ورسله وشهادة أمته على سائر الأمم ورفع درجات المؤمنين وإعلاء مراتبهم بشفاعته وغير ذلك من الكرامات السنية.

وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ﴿٥﴾.

﴿ولسوف يعطيك ربك فترضى﴾ موعد شامل ولما أعطاه في الدنيا من الفلج والظفر بأعدائه يوم بدر ويوم فتح مكة ودخول الناس في الدين أفواجًا. والغلبة على قريظة والنضير وأجلائهم وبث عساكره وسراياه في بلاد العرب وما فتح على خلفائه الراشدين في أقطار الأرض من المدائن وهدم بأيديهم من ممالك الجبابرة وأنهبهم من كنوز الأكاسرة، وما قذف في قلوب أهل الشرق والغرب من الرعب وتهيب الإسلام وفشوّ الدعوة واستيلاء المسلمين، ولما ادخر له من الثواب الذي لا يعلم كنهه إلا الله. قال ابن

---

(1) الجآذر: ولد العقرة الوحشية.

(2) ذكره الثعلبي والواحدي وابن مردويه في تفاسيرهم الزيلعي 4/ 224.

(3) سورة طه، الآية: 59.

(4) ذكره ابن مردويه في تفسيره، الزيلعي 4/228.

(5) رواه البخاري في كتاب: التفسير سورة الضحى باب: ﴿ما ودعك ربك وما قلى﴾ (الحديث رقم: 4950) ومسلم في كتاب: الجهاد والسير، باب: ما لقي النبي ﷺ من أذى المشركين (الحديث رقم: 115 ـ 1797).

(6) قال أحمد: وإخراج أهل الكبائر من النار بشفاعته مضاف إلى ذلك.

عباس رضي الله عنهما: له في الجنة ألف قصر من لؤلؤ أبيض ترابه المسك.

فإن قُلْتَ: ما هذه اللام الداخلة على سوف؟ **قُلْتُ:** هي لام الابتداء المؤكدة لمضمون الجملة، والمبتدأ محذوف تقديره: ولأنت سوف يعطيك. كما نكرنا في لأقسم أن المعنى: لأنا أقسم، وذلك أنها لا تخلو من أن تكون لام قسم أو ابتداء. فلام القسم لا تدخل على المضارع إلا مع نون التأكيد فبقي أن تكون لام ابتداء، ولام الابتداء لا تدخل إلا على الجملة من المبتدأ والخبر فلا بد من تقدير مبتدأ وخبر وأن يكون أصله: ولأنت سوف يعطيك.

فإن قُلْتَ: ما معنى الجمع بين حرفي التوكيد والتأخير؟ **قُلْتُ:** معناه أن العطاء كائن لا محالة وإن تأخر لما في التأخير من المصلحة. عدّد عليه نعمه وأياديه وأنه لم يخله منها من أوّل تربيه وابتداء نشئه ترشيحًا لما أراد به ليقيس المترقب من فضل الله على ما سلف منه لئلا يتوقع إلا الحسنى وزيادة الخير والكرامة ولا يضيق صدره ولا يقل صبره

أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ﴿٦﴾.

و﴿**ألم يجدك**﴾ من الوجود الذي بمعنى العلم والمنصوبان مفعولا وجد، والمعنى: ألم تكن يتيمًا، وذلك أنّ أباه مات وهو جنين قد أتت عليه ستة أشهر، وماتت أمّه وهو ابن ثمان سنين. فكفله عمه أبو طالب وعطفه الله عليه فأحسن تربيته[1]. ومن بدع التفاسير أنه من قولهم: درّة يتيمة. وأن المعنى: ألم يجدك واحدًا في قريش عديم النظر فآواك وقرئ: فأوى، وهو على معنيين: إما من أواه بمعنى: آواه. سمع بعض الرعاة يقول: أين آوي هذه الموقسة؟ وإما من أوى له إذا رحمه.

وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾.

﴿**ضالاً**﴾ معناه: الضلال عن علم الشرائع وما طريقه السمع. كقوله: ما كنت تدري ما الكتاب! وقيل: ضلّ في صباه في بعض شعاب مكة فردّه أبو جهل إلى عبد المطلب. وقيل: أضلته حليمة عند باب مكة، حين فطمته وجاءت به لتردّه على عبد المطلب. وقيل: ضل في طريق الشام حين خرج به أبو طالب. فهداك فعرفك القرآن والشرائع، أو فأزال ضلالك عن جدك وعمك. ومن قال: كان على أمر قومه أربعين سنة، فإن أراد أنه كان على خلوهم عن العلوم السمعية فنعم، وإن أراد أنه كان على دينهم وكفرهم فمعاذ الله، والأنبياء يجب أن يكونوا معصومين قبل النبوّة وبعدها من الكبائر والصغائر الشائبة فما بال الكفر والجهل بالصانع. ما كان لنا أن نشرك بالله من شيء وكفى بالنبي نقيصة عند الكفار أن يسبق له كفر.

وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ﴿٨﴾.

﴿**عائلاً**﴾ فقيرًا. وقرئ: عيلاً. كما قرئ: سيحات وعديمًا، ﴿**فأغنى**﴾ فأغناك بمال خديجة، أو بما أفاء عليك من الغنائم. قال عليه السلام: جعل رزقي تحت ظل رمحي[2]. وقيل: قنعك وأغنى قلبك.

فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴿٩﴾.

﴿**فلا تقهر**﴾ فلا تغلبه على ماله وحقه لضعفه. وفي قراءة ابن مسعود: فلا تكهر، وهو أن يعبس في وجهه، وفلان ذو كهرورة عابس الوجه. ومنه الحديث: فبأبي وأمي هو ما كهرني النهر[3]، والنهم الزجر عن النبي ﷺ: «إذا رددت السائل ثلاثًا فلم يرجع فلا عليك أن تزبره».

وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴿١٠﴾.

وقيل: إما أنه ليس بالسائل المستجدي، ولكن طالب العلم إذا جاء فلا تنهره. التحديث بنعمة الله شكرها وإشاعتها يريد ما ذكره من نعمة الإيواء والهداية والإغناء، وما عدا ذلك. وعن مجاهد: بالقرآن فحدث، أقرئه وبلغ ما أرسلت به. وعن عبد الله بن غالب أنه كان إذا أصبح يقول: رزقني الله البارحة خيرًا قرأت كذا وصليت كذا. فإذا قيل له: يا أبا فراس مثلك يقول مثل هذا. قال: يقول الله تعالى:

وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾.

﴿**وأما بنعمة ربك فحدّث**﴾ وأنتم تقولون: لا تحدث بنعمة الله. وإنما يجوز مثل هذا إذا قصد به اللطف وأن يقتدي به غيره. وأمن على نفسه الفتنة والستر أفضل ولو لم يكن فيه إلا التشبه بأهل الرياء والسمعة لكفى به. وفي قراءة علي رضي الله عنه: فخير. والمعنى: أنك كنت يتيمًا وضالاً وعائلاً فآواك الله وهداك وأغناك فمهما يكن من شيء وعلى ما خليت فلا تنس نعمة الله عليك في هذه الثلاث، واقتد بالله فتعطف على اليتيم وآوه فقد نقت اليتم. وهو أنه ورأيت كيف فعل الله بك وترحم على السائل وتفقده بمعروفك ولا تزجره عن بابك كما رحمك ربك فأغناك بعد الفقر، وحدّث بنعمة الله كلها. ويدخل تحته هدايته الضلال وتعليمه الشرائع والقرآن مقتديًا بالله في أن هداه من الضلال. عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة والضحى جعله الله فيمن يرضى لمحمد أن يشفع له، وعشر حسناتٍ يكتبها الله له بعدد كل يتيم وسائل»[4].

---

(1) رواه الحاكم في المستدرك 2/605.

(2) رواه البخاري تعليقاً في الكتاب: الجهاد والسير، باب: ما قيل في الرماح، وأحمد في مسنده 2/50.

(3) رواه مسلم في كتاب: المساجد ومواضع الصلاة، باب: تحريم= = الكلام في الصلاة (الحديث رقم: 33 ـ 537).

(4) ذكره الثعلبي وابن مردويه والواحدي في تفاسيرهم، الزيلعي 4/234.